الاغتراب في الشعر الليبي المعاصر
الرقيعي والفزاني أنموذجاً

د. مسعود عبد الله مسعود الميساوي
كلية التربية أبو عيـسى- جامعة الزاوية

مقدمة

هذا بحث بعنوان: (**الاغتراب في الشعر الليبي المعاصر الرقيعي والفزاني أنموذجاً**)، وقع اختياره لما تمثله ظاهرة الغربة والاغتراب في الشعر الليبي المعاصر من أهمية، وقد تطوَّرت هذه الظاهرة من اغتراب مكاني إلى اغتراب عن الذات، وإلى اغتراب اجتماعي، وآخر ثقافي، أو فكري، و جاءت خطوات البحث على الوجه الآتي:

مقدمة، وتعريف الاغتراب لغةً واصطلاحاً، وأسباب الاغتراب وتطوره، ومظاهر الاغتراب في الشعر الليبي المعاصر وتطورها، وهي:

1- الاغتراب المكاني. 2- الاغتراب عن الذات.
3- الاغتراب الاجتماعي. 4- الاغتراب الثقافي أو الفكري.

وعرض الباحث نماذج لعدد من الشعراء الليبيين المعاصرين، أمثال: علي الرقيعي، وحسن محمد صالح، وعلي الفزاني... وغيرهم من الذين مثّلوا ظاهرة الاغتراب في الشعر الليبي المعاصر، وأخيراً خاتمة البحث التي حوت أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

الغربة لغةً واصطلاحاً:

الغربة في اللغة:

(غ ر ب): الغربة، الاغتراب، تقول: تغرَّب واغترب فهو غريب، وغُرُب بضمتين، والجمع الغُرباء، والغُرباء أيضاً الأباعد، واغترب فلان إذا تزوَّج

إلى غير أقاربه[1]، وجاء في كتاب العين الغُرْبَةُ: الاغتِرابُ عن الوطن، وغَرَبَ فلانٌ عَنَا يَغْرُبُ غَــرْبًا، أي: تنحَّى، و أغربته وغَرَّبْتُه، أي: نحيته. والغُرُبَةُ: النَّوَى، أي: البعيد، يقال: شقت بهم غربة النوى[2]، وقد يؤخذ الاغتراب من الغراب؛ لأنَّ العرب كانت تتشاءم به، ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب[3] وتَزْعُمُ العرب أَنَّ الغراب دَال عَلَى الْفِرَاق، قَالَ الشَّنْفَرَى:

غُرَابٌ لاغْتِرَابٍ مِنَ النَّوَى   و بالباذين مِنْ حَبِيبٍ تُعَاشِرُهُ[4]

الغربة في الاصطلاح:

تباينت آراء الكتَّاب ووجهات نظرهم حول مفهوم الاغتراب، فمنهم من يراه حالة نفسية واجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريباً، ومنهم من يراه شعوراً يمكن أنْ يراود أيَّ إنسان في سائر المجتمعات والثقافات، فحيثما يوجد إنسان واحد يشعر بتفرُّده وتميُّز شخصيته، ولا يستطيع التجاوب أو التفاعل مع الأوضاع والظروف السائدة في مجتمعه، أو البيئة التي يعيش فيها، ينشأ لديه شعور بالاغتراب.

لمحة عن الشعر الليبي المعاصر:

في خضم التيارات التجديدية التي عمَّت الساحة العربية خلال القرن العشرين، شهدت الحركة الشعرية في ليبيا انفتاحاً على ما يجري في تلك الساحات من "تيارات اجتماعية، وثقافية، واقتصادية مختلفة، بدأت في إعطائه شكلاً ومحتوى جديديْن؛ لأنَّ الجيل الجديد من أبناء المجتمع تشبَّع بتلك التيارات، فأخذ يصنع منها إطاراً جديداً لحياته، تتشكَّل منه قيمه ومعتقداته، وبذلك بدأ صراع حاد بين الجيلين، جيل الانفتاح على التحررية، والجيل السابق الــذي مازال يتشبَّث بالقديم، والأدب الليبي أخذ بدور الريادة في هذا

الموقف الجديد"[5]، ومواكبة تيارات التحديث والتغيير في اتجاهات الثقافة العربية بعامة، والليبية بخاصة، فلم يكن غريباً أنْ تنعكس آثار هــذه التيارات عليه، وأنْ يتخذها درساً ومنهجاً ينطلق به إلى الأمام، ويكتسب من تجاربها وعياً ونضجاً وتفتُّحاً يتلاشى معه القياس الزمني إذا قارناه بمراحل الانطلاق الأدبي في بلاد عربية أخرى؛ لذلك سرت تأثيرات الحركة التجديدية في الشعر الليبي المعاصر سريان النار في الهشيم، حيث لم تجد تقاليد شعرية راسخة تعيق تقدُّمها، وإنَّما وجدت محيطاً بكراً، وهو غير محصَّن بموانع، أو معزول داخل ساحة مغلقة يتعذَّر معها الاقتحام[6].

شهد القرن العشرون وبخاصة النصف الأخير منه تحديثاً وتطويراً في بنية القصيدة الليبية شكلاً ومضموناً، حيث نجح بعض الشعراء الليبيين في تطوير أدائهم الفني، وارتفع مستوى القصيدة حين كانت بدايات التجديد في الشعر تنطلق مع نهاية الحرب العالمية الثانية، التي أجَّجت الشعور الديني والوطني، ودفعته إلى نهضة أدبية تزامنت مع الدعوة إلى الاستقلال، وتشكيل الأحزاب السياسية، ونشاط الحركة الصحفية، الأمر الذي حدا ببعض المثقفين إلى الإسراع بتحريك النوادي والجمعيات الأدبية، وإذاعة ما وصل إليه الشعر العربي من تطور"[7]، عند ذلك بدأت ملامح التجديد تظهر واضحة جليّة في شعر العديد من الشعراء الليبيين المعاصرين، أمثال علي الرقيعي، وعلى صدقي عبد القادر، وعلي الفزاني، وحسن محمد صالح، وخالد زغبية... وغيرهم ممَّن أدلوا بدلوهم في تيار الحداثة، وتحديث بنية القصيدة الليبية أسوة بنظيراتها في الوطن العربي خلال القرن الماضي، فقد ظلَّ كل من: الشلطامي، والفزاني، وعلي صدقي عبد القادر، يسعون إلى تحديث القصيدة، إذ كانوا على صلة وثيقة بما يجري في الوطن العربي من تيارات

تجديدية يقودها جماعة من الشعراء الروَّاد، مثل: السياب، والبياتي، ونازك الملائكة... وغيرهم كثير.

من هنا وجد الشعراء الليبيون أنَّ الطريق قد "عُبِّد في اتجاه التجريب الشعري بعد أنْ أصبحت الانتفاضة على الموروث القديم قد بدأت تحقِّق نجاحاتها، وتجد من يتقبَّلها ويباركها في الوطن العربي كله، وذلك من خلال الأعمال الشعرية لنازك الملائكة، وبدر شاكر السيَّاب، وعبد الوهاب البياتي، وصلاح عبد الصبور، وغيرهم من الشعراء الذين حملوا بعنف لواء التجديد الشعري، فقد شكلَّت فترة الستينيات وأوائل السبعينيات "متابعة للحركة الشعرية العربية في الوقت الذي تجاوبت فيه مع مضامين المرحلة التي كانت تسيطر عليها النزعة التحررية والدعوة إلى الاشتراكية، كما اشتدت فيها الأزمة بين الشاعر والواقع السياسي، وبخاصة بعد هزيمة1967م، ودخول الشعر مرحلة البكائيات على الحالة السيئة التي وصل إليها العرب، إلى جانب التفافهم إلى الجانـــب الاجتماعي المتدهور الذي تمثَّل في حالة الفقر والبؤس والمرض، فانعكس ذلك على شعرهم"[8].

وما جرى في الوطن العربي من تجديد في الشعر جرى في ليبيا أيضاً، حيث احتذى الشعراء الليبيون في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية حذو رواد القصيدة الحديثة في المشرق العربي فكان "المثقَّف الليبي ينطلق دوماً مع تيارات التجديد والتغيير في اتجاهات الثقافة العربية عامة ويتابعها؛ لذلك انساق الشعراء الليبيون وراء روَّاد القصيدة الحديثة في المشرق، ولبسوا أرديتهم، وقلَّدوا أصواتهم، وعاشوا عوالمهم، وأخذ كل شاعر ليبي من شعراء تلك المرحلة الصوت الشعري لشاعر عربي هو الأقرب إلى رؤيته الاجتماعية ومزاجه النفسي"[9].

عاش الشعراء الليبيون تحت ظلال من سبقوهم من شعراء الحداثة في الشرق العربي، يقول الأستاذ كامل المقهور: "اتجه المتعلمون إلى الثقافات الشرقية التي ابتدأت ترد إليها بعد الاستقلال من مصر ولبنان بالذات، وابتدأ شبابنا يعمِّق مفاهيمه، و يتخذ له قيماً جديدة، يحاول أنْ يخلق ثقافة وطنية يتلافى فيها جميع الأخطاء السابقة، وعلى العموم ابتدأ وعي ثقافي جديد يستمد قوته من واقعنا الجديد الذي يعيش في أعماق شبابنا" (10)، حيث أخذت هذه الحركة تتلمَّس طريقها في أوساط الخمسينيات وما بعدها من القرن العشرين، تحاول مجاراة هموم العصر وقضاياه، وقد توجَّه اهتمامها أولاً إلى هيكل القصيدة أكثر من تقنية لغتها الشعرية، متأثرة بأصوات رواد الشعر الحديث(11)، وقد صوَّر الشعراء المعاصرون الواقع بكل ما فيه من إيجابيات ونجاح وسعادة، وبكل ما فيه من شرور وآلام وقبح وشقاء وبؤس، وغلبت عليه النظرة التشاؤمية حيث تجلَّت ظاهرة الاغتراب في الشعر الليبي المعاصر بعمق واتساع؛ نتيجة الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المتأزم في الوطن العربي، فالنفي والغربة والضياع صار إحساساً عاماً يشيع في معظم أعمال الشباب فيما يعرف الآن بالشعر الحر، حتى يمكن القول بأنَّه يوشك أنْ يكون لهؤلاء الشعراء فلسفة يفسِّرون خلالها أغلب ما تقع عليه حواسهم من وجوه الحياة، وإحساس الشاعر بالضياع ليس شيئًاً جديداً على الشعر العربي الحديث قبل ظهور حركة الشعر الحر، بل كان جانباً مهماً من جوانب الرومانسية عند الشاعر الذي يعجز عن مجاراة الحياة، فيشعر بالوحدة والغربة والضياع وبخاصة حين يشيع حوله صمت الليل وكآبته(12).

ظاهرة الاغتراب وتطورها:

ارتبطت ظاهرة الاغتراب قديماً بالابتعاد المكاني عن الوطن، أي أنَّ "الإحساس بالغربة جاء نتيجة المسافة التي تفصــل بين الإنسان ومجتمعه وعالمه، ولكن معنى الاغتراب مع التطور الذي حدث ويحدث أصبح يعني فقدان القيم والمثل الإنسانية والخضوع لواقع اجتماعي، يتحكَّم فيه الإنسان المتسلِّط، ويستعبد الآخر، فيشعر بالانفصــال والانعزال عـــــن الآخرين والعالم، وحتى عن ذاته، فربما يكون سبب الاغتراب العسف والقمع السلطوي الذي يمارس على الإنسان، أو بسبب الظلم الاجتماعي الذي تعيشه الطبقة الفقيرة، وتمارسه عليها الطبقات القوية والغنية، فقد "قالوا: الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة"[13].

للاغتراب أسباب كثيرة منها: الشعور بالوحدة والعزلة وعدم الرضاء عن العلاقات الاجتماعية، والسخط على طبيعة الوظيفة، والإحساس بالضعف، أو بعدم الثقة إلى آخره...[14]، فتكون بذلك ظاهرة الاغتراب قد أخذت معاني جديدة تتمثَّل في ما يشعر به الإنسان المعاصر من مظاهر الاضطهاد والظلم والتعسُّف الذي وقع عليه من تسلُّط الحاكم، أو ما يشعر به من فقر وبؤس وشقاء؛ فيحس كأنّه غريب ولو كان يعيش داخل وطنه، وقد تجلَّت هذه الظاهرة في الشعر العربي المعاصر بعمق واتساع نتيجة الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المتأزم في الوطــن العربي، فالنفي والغربة والضياع والعزلة التي يعاني منها الإنسان المعاصر، وشدة الحاجة إلى معرفة الذات الإنسانية، وهوية الإنسان ومكانته، وعلاقاته بنفسه وبالآخرين من حوله جعلته يشعر بالغربة والضياع نتيجة لحرمانه من ممارسة حقوقه

المشروعة، فنشأت عنده حالات من الاغتراب؛ لذلك اتسعت ظاهرة الاغتراب في الشعر العربي المعاصر.

أنواع الاغتراب:

أصبحت ظاهرة الاغتراب ظاهرة إنسانية لا ترتبط بمكان أو زمان، فحيثما وجِد الإنسان قد يكون هناك اغتراب بمختلف صوره وأشكاله ومدلولاته وأسبابه التي لا يمكن حصرها، فالإنسان يحس بالاغتراب، ولو كان يعيش داخل وطنه؛ لأنّه يرفض أشياء ويتحدَّاها، ويختلف مع أكثر من أسلوب يسيطر على الحياة، وإنْ كان أحياناً لا يملك إلا الصمت، فإنَّه في أحيان أخرى يملك أنْ يصرخ أو يبوح أو يئن، وهذا الاغتراب له أنواع كثيرة منها: الاغتراب المكاني و الزماني، والنفسي، والاجتماعي، والثقافي أو الفكري، وسأتحدث بإيجاز عن أهم مظاهر الاغتراب في الشعر الليبي المعاصر وهي: الاغتراب المكاني، اغتراب الذات، والاغتراب الاجتماعي، والاغتراب الثقافي أو الفكري:

أولاً: الاغتراب المكاني.

حاول الشاعر علي الفزاني في الشعر الليبي المعاصر السير في نهج خاص يتميَّز به عن غيره من شعراء عصره، حيث قدَّم عدداً من الدواوين الشعرية التي تشع بالغربة والنفي والضياع والحزن والكآبة، متأثراً في ذلك بالواقع الذي يعيشه، فقد مرَّت على المجتمع الليبي فترة زمنية مليئة بالسوداوية والتشاؤم، وباليأس والانغلاق والانزواء عن التيارات الحديثة من اجتماعية وثقافية وسياسية وفكرية واقتصادية، وقد صبغت تلك الفترة العلاقات الاجتماعية بطابعها، وصبغت الأدب والفن الليبييْن بالطابع نفسه، فساد الحزن والألم والعذاب والحيرة واللوعة والتشاؤم الأغنية الليبيـــــة،

وسادت السوداوية واليأس القصة والأدب بعامة[15]، وهذه الأشياء السوداوية يلحظها الدارس لشعر الفزاني بكل سهولة ويسر، بل تمثل ملمحاً رئيساً في تجربته الشعرية الخاصة؛ لأنَّ رؤيته للحزن والاغتراب والضياع قد اكتملت ونضجت، عند تقديم الفزاني "سبعة دواوين كلها تعبير عن هذه الرؤية، فقد عاش تجارب ذاتية أحاطت به وبأبناء جيله بسبب حالة البؤس والاضطهاد والنكسات المتوالية، ومن أول تفاعله مع الحياة كانت بدايته مع رحلة الضياع التي نشأت عن واقعه وتأثره بما قرأه في شـــعر معاصريه، و ترسَّخت بعد أنْ اصطدم بواقع جعله يركب زورق الأحزان ليواجه هذه الحياة "[16] ويمكن القول إنَّ شعر الاغتراب يكاد يكون حنين شجرة انتزعت من جذورها، وألقيت بعيداً من مصدر خصبها ونمائها، ومورد خضرة أوراقها وازدهار وجودها، ثم باتت مهددة بالذبول والموت[17]، فعندما اغترب الفزاني وارتحل عن وطنه لعله يجد الأمن والاستقرار، أدرك مرارة البعد فصار حفنة من السأم يجهضه المساء من حانة إلى حانة، ولم يعد يتذكَّر من الوطن سوى تلك الحكايات القديمة، فــقال مصوراً ضياعه في قصيدته **(فارس ليس من تكساس)**:

أنا على الطريق حفنة من السأم
يجهضني المساء
من حانة لحانة أنا شريد!
الشرق في ملامحي حكاية قديمة
وشهر زاد والخليفة الرشيد في دمي، بلا حريم[18].

ثانياً- اغتراب الذات:

ينشأ اغتراب الذات عن التناقض بين الإنسان والعالم الخارجي، وبين الواقع والخيال، وبين ما هو عليه وبين ما يحلم به، و بين ما يملكه وبين ما يطمح إليه، وبين نظام العالم ونظام تفكيره، و بين عالم الآخرين وعالمه الخاص، فينفصل المرء عن ذاته الإنسانية الحقَّة، أو عن طبيعته الجوهرية، وبهذا المعنى يحمل ذلك التعبير الكلي لإنسانية الإنسان، ويعد الشاعر حسن محمد صالح من أكثر شعراء الرومانسية في ليبيا تحدُّثاً عن وحدته وغربته واغترابه عن واقعه، وربما كانت ظروفه الشخصية من يتم وحرمان من عاطفة الأمومة وهو صغير السن من أشد الأسباب التي دفعته إلى الشعور بالغربة الروحية، لقد وضح أثر ذلك في قصيدته **(عقوق)** التي صوَّرت مأساته ووحدته منذ نعومة أظافره فقال:

ملعونة ملعونة أنت
مادمتُ أحيا ضائعاً متشــرّداً
من غير أحباب ولا بـــــيت
مادمتُ أحيا ظامئاً متعطِّشــاً
للعطف والإيناس والقـــوت
ملعونة ملعونة أنــــت[19].

وقدَّم الشاعر علي الرقيعي[20] صورة عن حالة البؤس والحرمان التي عاشها، وتجرَّع مرارتها في وطنه ليبيا الذي لم يجد فيه مأوى غير الدروب الموحشة التي جعلته في صراع يتأرجح بين الضياع والأمل، فقال في قصيدته **(غربة)**:

أصارع في خضمّ العمر محترقاً بلا مجداف

بلا مرفأ
عليه أنظم الأشعار، أرقد عنده أدفأ
عليه التقي بيدين تبتنيان لي مأوى
عليه أنام
لعلّي التقي بطيوف أحبابي ولو مرّة
واشعر أنني إنسان[21].

وعبَّر علي الرقيعي عن غربته التي كان سببها إحساسه بالاغتراب المنبعث من حزنه الطويل وفشله المرير في الحياة فقال:

إنِّي غريب سادر عبر المجاهل في الظلام
أمشي بأقدامي الكليلة فوق مرذول الرجام
متعثراً أخشى السقوط من الوراء إلى الأمام
وهل الغريب البائس المنهوك يحفل بالمدام[22]

والرقيعي سئم وحدته وغربته لكنَّ الأمل دفعه إلى الحياة وأنسها؛ للتخلُّص من الحزن والوحدة والكآبة والاغتراب، معبِّراً عن ذلك بقوله:

وسئمت وحشتي الكئيبة، والشقاء وحاضري
وسئمت أياماً مضت، وعبوس ظلمة خاطري
فمضيت أنشد ظلّة تجلو خاطري
وتريق في قلبي الحنان العاطفي الشاعري[23]

وعلى نحو هذا ندرك قول علي الفزاني في قصيدته **(منديل وداع ممزَّق)**:

يا صاحبي .. بالأمس كنت يافعاً صغيراً !
أحب وجه جارتي التي لها ظفائر القمر
وكانت الطفولة ..

مراتع حبيبة جميلة

والنأي .. لم تكن نغومه كئيبة الإيقاع

ورحلتي قصيرة .. ولم يَشُب مصيرها الضياع

واليوم .. ما أنا ؟ .. أنا

ممزَّق ومتعب الجفون والضمير

محطَّم كموجة مع المساء تبعثرت على الصخور!

تطير بي، وبك

الشوق في عيون صاحب يودعك!

لكنني يا صاحبي .. وحيد!

لا حب لي

لا شوق لي

سوى الحروف في حقائبي، وحفنة من العذاب والألم!(24)

إنّه اغتراب بعيد الأغوار وعميق؛ لأنَّه يستبطن الذات، ويسبر أعماق الوجود بحثاً عن قرار وثبات، وفي مثل هذا التصور يبدو الحنين إلى الطفولة حنيناً إلى ميلاد عالم جديد بديل عن العالم الذي افتقدت فيه الذات موقعها ووجودها، والفزاني يزداد ألماً وحزناً في قصيدته **(حانة القلق)** حيث أخذ يسعى إلى تعميق إحساسه بالحزن والكآبة، ورؤيته الفنية لذلك، فالأحذية التي ينتعلها صارت قطعاً ممزَّقةً بسبب الفقر والبؤس والضياع، فقال معبراً عن ذلك:

أحذيتي تمزَّقت .. زجاجتي أحضنها كمرضعة

أثداؤها تنز بالصديد .. بالسموم مترعة

والشارع المضاء يلعق السكون

يمتصنا معه[25]

يحاول الشاعر أنْ يجد مكاناً يأوي إليه بعد أنْ تمزَّقت الأحذية التي يرتديها بسبب البؤس والضياع الذي "ازدادت درجته فصار يحتضن الخمر التي لجأ إليها، فكانت له مثل مرضعة لشدة ضياعه فيها، فزادته بؤساً؛ لأنَّ أثداءها تنز بالصديد، ثم قدَّم صورة الشـــارع في آخر الليل، حيث الأضواء خافتة، والسكون الذي تأنس إليه الملاهي لتأوي السكارى والضائعين، هذه الحالة أجَّجت فيه علامات التساؤل والاستنكار حتى استقر في نفسه الإحساس بأنَّ وجوده ضياع في رحلة الحياة التي استوقفته على الأنين والسعال، فلم يعد قادراً على مصارعة آلامه"[26].

ولقسوة الحياة ومرارة الأسى والحزن، يصوَّر الفزاني ذلك كل في قصيدته **(غربة الموت والحياة):**

ألم أقل لكم؟ .. ألم؟

وجودنا ضياع

هذا أنا مُمّدد، وهذه نهاية الصراع

أصابعي من وهني، لا تحمل اليراع

آه أيا مرارة الأسى ولعنة الأوجاع[27]

ويقول الفزاني في قصيدة أخرى عن النفي والضياع والغربة وما يشعر بداخله من آلام:

لو قلت إنني مطارد من داخلي

لو قلت إنَّ غربتي عميقة

لو قلتها لاستضحك الأوغاد في المدينة العتيقة[28].

ثالثاً: الاغتراب الاجتماعي.

الاغتراب الاجتماعي "يعني باختصار شعور الفرد بالانفصال عن جانب، أو أكثر من جوانب المجتمع كالشعور بالانفصال عن الآخرين، أو عن القيم والأعراف والعادات السائدة في المجتمع، أو عن السلطة السياسية الحاكمة، إضافة إلى ما يصحب ذلك من إحساس بالألم والحسرة، أو التشاؤم واليأس، وما يرافقه أحياناً من سخط أو تمرُّد أو نقمة أو ثورة"[29] وانتشار المفاسد وشيوع الكذب والنفاق والخلاعة واللهو وزيادة الفقر في المجتمع، وكذلك كل مظاهر الظلم والقهر، وفقدان العدالة الاجتماعية، والانسلاخ عن المجتمع والعزلة والعجز عن التلاؤم والإخفاق في التكيُّف مع الأوضاع السائدة في المجتمع، وعدم الشعور بالانتماء نتيجة أزمة من الأزمات التي تصيب المجتمع في مراحل نموه وتطوره المتعاقبة، تزيد من اغتراب الناس اغتراباً يبعدهم عن القبول بهذا السلوك، فالعالم الذي يعيش فيه الإنسان هو من صنعه، كما أنَّ النظم السياسية والحضارية والاجتماعية هي الجوهر الاجتماعي الذي بلوره الإنسان الدائم التَّطلع إلى تحسين ظروف معيشته، عبر المزيد من إشباع حاجاته المادية والعقلية، وعندما يشعر الإنسان بفقدان الأمل وبالألم وبمرارة الحرمان يكون معزولاً عن مجتمعه، وبالتالي مغترباً عنه، وهذا ما يمكن ملاحظته عند الفزاني وبخاصة في ديوانه **(قصائد مهاجرة)** الذي كان "حصيلة تشاؤم وحزن وشعور حاد بالاغتراب وعدم التواصل، وهي من ثم ملحمة أحزان، وصاحبها مثقَّف وأصيل في التعبير عن ذاته"[30]، ومما يؤكـد ذلك ما جاء في قصيدته **(نزيف القلب)** التي افتتح بها هذا الديوان قائلاً:

بدماء القلب في ليل السهاد

وخيوط التبغ في وحدتنا عبر الليال

ودمار الروح يا أخت على درب المحال
بنزيف القلب في ليل السهاد
سطريها في جدار الدهر ذكرى ستعاد
وإذا لاقاك طفل ذابل العينين يقتات رماد
في بلاد الفقر والقهر .. في أي بلاد
فاقرئي ملحمة الأحزان هذي
اقرئيها
فهي إرث السندباد[31]

ويصوِّر الفزاني واقع العرب وحالهم في قصيدته **(قصائد مهاجرة)** واصفاً واقعهم، وهو يعيش بين الأمل وخيبة الأمل، الأمل في مستقبل زاهر وغدٍ مشرق، فيضرب لذلك مثلاً بمدينة حضرموت، تلك المدينة المتأخرة من جميع الوجوه، والتي ربَّما يوحي اسمها بحضر الموت، فيصفها بأنَّها مرتع الأحزان والذباب، ثم يردف ذلك بذكره الطوفان لأمل في مستقبل زاهر وغدٍ مشرق، فيقول:

منذ أنْ حطّت على صدري ثقال الأمسيات
واحتواني صمت (بنغازي) الطويل
ضمني كالقبر في ليل الشتاء
في عظامي ينخر الفقر والبؤس المقيت
ويغطِّي السيل عاري بالمياه
ويعرِّي السيل أحلام البيوت
ربِّ .. ماذا ؟
رجع الطوفان في الأرض الموات

رب: ماذا؟ .. أتراها حضرموت
ترتع الأحزان فيها والذباب
ويمر النحل يوماً من ذراها
ليموت .. [32]

ويصوِّر الشاعر وحدته وغربته وهو يسلك الشوارع الخالية التي تعصف بها الرياح، وقد أُغلقت نوافذها، وبدأ الليل يترصَّد الغروب في حالة من الحزن والأسى؛ ليضم الحيارى الذين مزَّقهم الأسى فيقول:

أنا والشارع الخالي، وريح فوقه حيرى
وقد نامت نوافذه، فأغلقها مساء خريف
وثم الليل ينتظر الغروب برعدة وأسى[33]

ويرسم الفزاني في قصيدته **(العقم والكهولة)** صورةً قاتمةً لضياعه واغترابه، وهو مطارد من الجميع: القدر والذئاب والكلاب كلها تطارده للقضاء عليه، فالبحار و العداة واقفون أمامه ليقتلوه و السنون صارت تغتاله، فصوَّر ذلك في صورة شعرية رائعة، قائلاً:

يا ويلتا!
كهولتي على مشارف السنين تنتظر
بدايتي، نهايتي للعقم والضجر!
وددت يا صديقتي لو أنني عبرت لجّة الليال
وغصت عبر هوة الزمان والعصر
وددت أنْ .. لكنني ..
مطارد، مطارد قدامي الكلاب
وخلفي الذئاب والقدر

البحر والعداة "الذل والعدم ![34]

مع كل ذلك يسارع الفزاني إلى تعميق فكرة النفي والغربة والضياع، فيصوِرها في صورة وحش يعصر فؤاده، فيقول في قصيدته **(الموت في الضباب)**:

أصيح: أيُّها الإله.. أيُّها القضاء والقدر
أريد أنْ أعود
أريد أنْ أمر
أريد أنْ يضمني قرار كونك السحيق!
أريد أنْ أنام في مجاهل المدى العميق!
أريد أنْ أنام
لأنني مللت
لأنني سئمت
سئمت وحشاً بربرياً يعصر الفؤاد
يُطيح جثتي على الطريق
فيستوي الظلام والضياء والغروب[35]

وتشتد حدة التشاؤم عنده، فيصوِّر ذلك في قصيدته **(طريق الغضب)** التي كانت "ثمرة طبيعية لضياع الإنسان الليبي، وغربته في مجتمع القهر والذل والجوع، حيث تسيطر قوى أكبر منه على حياته، فيزداد إحساسه بالغربة والضياع"[36] فيقول:

الشاعر المغترب الطريد
يطحنه الفراغ عبر رحلة الوجود ..
يمضغه المقهى .. تواسي حزنه رسائل البريد

الشاعر المعذَّب البعيد
يموت في انتظار ما يريد
يمشي على النيران والجليد[37]

ويموج شعر لطفي عبد اللطيف [38] بالحزن والكآبة والضياع والاغتراب التي خلَّفتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية، فيصوِّر محنة الإنسان الليبي من حوله، وكذلك يصوِّر تعاقب السنين مشرَّداً من خريف إلى آخر يترصَّده الحزن في كل مكان فيقول:

أعيش مولد السنين كل عام
مشرَّداً من الخريف فالخريف
ببلدة من الجليد والسأم[39].

رابعاً- الاغتراب الثقافي أو الفكري:

الاغتراب الثقافي هو "شكل محدَّد من أشكال التغير الثقافي الذي يحدث في أي مجتمع تحت تأثير الاتصال بجماعات أو أفراد آخرين، وهذا التأثير قد يتحوَّل إلى غزو ثقافي متعدد الجوانب من شأنه الإغراق في قيم اجتماعية وثقافية غير ملائمة مما يحدث اغتراباً ثقافياً"[40].

يتمثَّل الاغتراب في استعارة الأقطار النامية لقيم وأنماط الحياة السائدة في الدول الصناعية المتقدِّمة بدل تطوير القيم المحلية وأنماط الحياة الأصيلة، وإشاعة قيم المستعمرين ولغاتهم على حساب القيم المحلية واللغة المحلية، وإهمال الثقافة القومية واستبدال الثقافات الغربية بها، فحين يتعلَّم طفل لغةً أجنبيةً تبدأ بذور الاغتراب الثقافي في وجدانه، فالاغتراب الثقافي يتناقض مع مَنْ يتمسَّك بالتراث الهوية والانتماء، وتمجيد الثقافة الوطنية التي تعد الحصن الحصين للذات العربية، ومبعث كل نهضة؛ لارتباطها بالقيم الدينية المقدَّسة،

والانتماء إلى وطن واحد يكون مصدراً لتوليد الشعور بالانتماء الذي يعزِّز التَّمسك بالوطن في الشدة والرخاء، فالاغتراب لدى الإنسان العربي الذي يتمسَّك بهويته وثقافته الوطنية أو القومية هو كل اتجاه يبتعد به عن هويته وثقافته، وهو كل ممارسة تدل على ابتعاد عن الهوية بكل مكوِّناتها اللغوية والدينية والتاريخية، ناهيك عن الشعور والإحساس بعدم الانتماء الثقافي إنْ كان ذلك احتقاراً للثقافة المحلية واستعلاءً عليها، أو إيمانًا بعدم قدرة هذه الثقافة على تحقيق طموح علمي أو حضاري منشود، وقد أدَّى فهم الاغتراب -على هذا النحو- عند بعض المثقَّفين إلى الاحتماء بالتراث وتثبيته أصلاً ومقياساً لقياس الانتماء إلى الأمة، كما جعلوا منه قاعدة لكل عمل سليم موصِّل إلى النجاح، و ليس ذلك خروجاً عن جادة الصواب إذا لم يرفق بشيء من التطرُّف الذي يمنع الألباب من رؤية الصالح والمفيد في كل وافد جديد، يضاف إلى ذلك تلك الفوضى الثقافية والاجتماعية التي أحدثتها الثقافة الوافدة على المجتمع العربي التي فرضت نفسها كثقافة للمجتمعات المسيطرة، وهذه الثقافة التي أغرى بريقها المثقفين فراحوا يلاحقون مصادر الإشعاع فيها دونما جدوى في تحقيق المراد: كما أثَّرت كذلك في روح مؤسساتنا الثقافية والتربوية والإعلامية فلم تعد تنتج لنا قيماً مدروسة وفق استراتيجية محدَّدة، وإنَّما انحصر دورها في إعادة إنتاج قيم الثقافة المهيمنة في إحالة رمزية إلى أنْ تقدَّم المجتمع ومؤسساته إنَّما هو رهن بإتباع ثقافة المجتمعات المسيطرة، ومن ثم تقليد ثقافة المجتمعات المسيطرة، فتغزو ثقافاتهم مجتمعاتنا فيحدث وجه من أوجه الاغتراب الثقافي، التي يعد من أخطرها أنْ يغترب المرء عن تاريخه، فلا يعود لهذا التاريخ مفعوله الكافي لخلق الشهامة وإذكاء روح الفتُّوة في الإنسان العربي، وكذلك عناصر الثقافة الوطنية الأخرى من

دين ولغة وغيرها من العناصر التي يؤدي تفعيلها إلى لم الشمل العربي، وإعادة التوازن للعقل العربي الذي يغرق في شتى متاهات الفكر، ويغترب يوماً بعد يوم عن جوهر الرسالة المنوطة به على مستوى الوطن والدين والمجتمع والذات، ومن هذا الاتجاه كان الاغتراب ظاهرة ثقافية تؤدي إلى انتقال المجتمع، وتحوّله من طور الثقافة التقليدية إلى طور الثقافة الدخيلة الوافدة، كما أنَّه يهدد النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ويظهر بوضوح في المؤسسات التربوية اغترابات نفسية وفكرية أبعدته عن المجتمع وجعلته يستشعر بشاعة الدنيا وقسوتها، فهي لا تأتي إلا بالفجائع والمصائب، حيث كان الفزاني رافضاً لكثير من قيم المجتمع الليبي التي أصبحت لا تلبِّي حاجة الإنسان الليبي المعاصر، فولّد لديه حالة من الحزن المزمن، وإحساساً قاتلاً بالاغتراب والنفي والضياع والعزلة؛ الأمر الذي دفعه إلى البحث عن الضوء والأسفار والحرية، لأنَّه أحسَّ أنَّه أصبح مطارداً محاصراً حزيناً، تُسخِّر الأنظمـــة الحاكمة له كل وسائل الرعب والقتل، وتدس تحت وسادته المخبرين، فتعدَّى الشاعر بذلك إحساسه بالغربة والضياع إلى "جدلية الصراع في المجتمع الذي أجهز على أمثاله، وأخذ يلاحق الفكر والفن، الأمر الذي عمَّق فجوة الحزن، بعد أنْ أضيفت الغربة الفكرية التي تمثِّل قمة الضياع عند الشاعر الذي تطارده السلطة للانقضاض على سلاحه الوحيد وهو الفكر والعلم" (41) وهذه بعض معاناة الشاعر إذ يقول:

مطارد محاصر إلى غد .. إلى الممات
مصفّد و لات من قيوده انفلات
الصمت قيد
والبوْح قيد

والنار في القرار تأكل المزيد في القرار
لن ينتهي نضاله، وفي الضلوع ومضة من الشرار
لن ينتهي !
صديقتي
لأنَّ شاعراً يراعه يقدّس الفكر
مطارد، محاصر إلى المدى من القدر![42]

عاش الشاعر تجارب ذاتية أحاطت به وبمجتمعه الليبي من فقر وبؤس واضطهاد سياسي واجتماعي، ونكسات متوالية، فعبَّر عن هموم الوطن والمواطن من خلال همومه الخاصة وأحزانه، فهو عندما يحدثنا عن صَلَبِه الذي يتبعه كظله، وكيف أنَّه فقير ومهان وحقير منذ ولد، فهو يحدثنـــا عن ظلام الحياة في ليبيا، ففي قصيدته **(بعد الصلب)** يبيِّن لنا كيف جرَّب كل الطرق كي ينسى عذابه، فالحانات والعاهرات، والسفر والرحلات والمغامرة، كلها بلا فائدة، إذ ظل عذابه هو عذابه، وأيقن أنَّه سيظل يغنِّي أشعاره مصلوباً، مع أنَّ الأميرة **(ليبيا)** التي يغنِّي من أجلها لا تبالي، وتتسلى بعذابه ودمائه[43]، فيقول:

ظل يأسي .. هو يأسي .. وعذابي، كعذابي
يوم صلبي ..
يوم أنْ أعطيت للفكر شبابي !!
كلماتي، متعبات مرهقات
نغماتي: حائرات ثائرات
كل ما في داخلي، ينفي الحياة
ويراها نزعات تافهات"[44].

ففي النص اصطدم الفزاني بواقع أليم جعله يركب زورق الأحزان؛ ليواكب هذه الحياة ويواجهها فأخذ يهمس للشعب الليبي بآلامه داعياً إياه إلى اليقظة والثورة، وإذ جاءت دعوته خافتة بلا صراخ، فهذا أسلوب الشاعر الحقيقي الذي يدع الخطابة الصارخة للخطباء، وعندما يكرِّر الشاعر تساؤله الأليم ثم ماذا؟ ثم ماذا؟ فإنَّما يقول للشعب الليبي أقوى الكلمات الحاثة على الثورة بلغة الشاعر المفكِّر، ويستمر الشاعر في تعميق فكرة الغربة والاغتراب والنفي والضياع، وقد بات إحساسه بالنفي والغربة والضياع مسيطراً عليه في أغلب شعره، وكأنَّه عقد حِلفاً مع الغربة والاغتراب، والحزن والضياع حتى أصبحت هذه الأشياء تمثِّل جانباً مهماً من جوانب الرومانسية عنده، الأمر الذي يعجز معه عن مجاراة الحياة، فيشعر بالوحدة والغربة وفي ذلك يقول:

الليل في مدينتي: ما أشنعه!

والجيل ذا، يا صاحبي ما أضيعه[45].

ويتحدَّث الفزاني عن ضياعه وحزنه وعذابه في بعض قصائده، من ذلك ما ورد في قصيدته **(رسالة سمراء)** التي يحسُّ فيها الفزاني بمرارة الحزن وقسوة الاغتراب التي تركته منكسر الجناح، يصرخ في وجه الحياة، ويشكو ما يعانيه من تمزُّق، فلم يعد يرى تلك المناظر التي تبدو في حقيقتها جميلة إلا بمنظار سوداوي[46]، بأنْ سئم الشوارع المعتَّمة الأسوار، وما إلى ذلك من الصور التي ذكرها في قصيدته بقوله:

ما ألعن الزمان!

إذا غدا سأمة وغربة تمزق الوجدان

يا ولدي الإنسان،

أنا سئمت هذه .. الأسفار

وهذه الشوارع المعتَّمة الأسوار

وهذه الحدائق التي ترضعها أنهار

وهذه الجبال، والجليد من أنوفها ينهار

يا ولدي الإنسان..

ما عاد في حقائبي سوى رسائل الأحزان[47].

لكن الفزاني يبدو كأنَّه سيِّد التعساء والفقراء والمعوزين المتعبين، حين بدت سمة الحزن والكآبة ظاهرة عليه، من ذلك قصـــيدته **(مواسم الفقدان)** التي أوسم بها الشاعر ديوانه مواسم الفقدان، منها قوله:

كان ما أعتى إلى القيد معادي

كان ما أقسى الخسارة...

يا هوايا

وعلى باب المدينة

علَّقوا سفر الرواية

اعذريني .. اعذريني يا صغيرة

اعذريني، فالهدية ..

صادروها، من جرابي، والحقيبة

وثيابي، وحروفي، و المتاعا

افهمي الآن الضياعا[48].

الخاتمة

وبعد فيمكن القول: إنَّ أهم النتائج في هذا البحث تتلخَّص في النقاط الآتية:

1- إنَّ ظاهرة الاغتراب ظاهرة قديمة ارتبطت بالاغتراب المكاني، أي بالابتعاد عن الوطن والأهل والأصحاب والأصدقاء، وقد عانى الشعراء هذه الظاهرة منذ قديم الزمان.

2- إنَّ ظاهرة الاغتراب في الشعر الليبي المعاصر اتخذت شكلاً جديداً يتمثَّل في ما يشعر به الإنسان المعاصر من اضطهاد سياسي، وظلم اجتماعي، وتعسُّف وقع عليه من تسلط الحاكم، أو ما يشعر به من فقر وبؤس وشقاء.

3- تجلَّت ظاهرة الاغتراب في الشعر الليبي المعاصر بعمق واتساع نتيجة الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المتأزم في الوطن العربي بعامة وفي ليبيا بوجه خاص.

4- تطوَّرت ظاهرة الاغتراب في العصر الحاضر لتشمل أنواعاً من الاغتراب منها: اغتراب الذات، والاغتراب الاجتماعي، والاغتراب الثقافي أو الفكري.

5- الحزن والنفي والوحدة والعزلة والكآبة و الضياع والقلق والغربة، أهم مظاهر الاغتراب بأنواعه وأنَّ شعور الإنسان المعاصر بهذه الأشياء جاء نتيجة لحرمانه من ممارسة حقوقه المشروعة، وأنَّ الشعراء الليبيين حاكوا شعراء الغرب الذين ضاقوا ذرعاً بتعقيدات الحضارة الحديثة؛ لانقطاع روابط المودة والحب والإخاء بين الإنسان وأخيه الإنسان.

هوامش البحث.

(1) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصِّحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت 1995م، ص 197.

(2) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال القاهرة، 4 / 410.

(3) ينظر: الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت 1996م، 2/ 316.

(4) أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ، 4 / 225.

(5) سليمان كشلاف، كتابات ليبية، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى 1977م، ص 198.

(6) ينظر: نجم الدين غالب الكيب، علي صدقي عبد القادر شاعر الشباب، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ليبيا، ديسمبر 1985م، ص 24.

(7) ساسي سعيد رمضان، قضايا التشكيل في الشعر الحر في ليبيا، رسالة دكتوراه مقدَّمة إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة 1998م (غير منشورة)، ص 12.

(8) ساسي سعيد رمضان، قضايا التشكيل في الشعر الحر في ليبيا (رسالة دكتوراه غير منشورة)، ص 12.

(9) إدريس المسماري، حدود القراءة حدود القراءة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان (سابقاً)، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى1998م، ص 95.

(10) علي الرقيعي، ديوانه الحنين الظامي، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ليبيا، الطبعة الثانية 1979م، ص 22.

(11) زهير غازي، مجلة الفصول الأربعة، العدد 98، يناير 2002م، ص9.

(12) عبد القادر القط، جريدة الحقيقة، العدد1090، 3 مايو1969م.

(13) أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت1986م، ص309.

(14) إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى 1978م، ص55.

(15) ينظر: سليمان سالم كشلاف، كتابات ليبية، ص197.

(16) ساسي سعيد رمضان، قضايا التشكيل في الشعر الحر في ليبيا، (غير منشورة)، ص25.

(17) ينظر: قريرة زرقون، الحركة الشعرية في ليبيا في العصر الحديث، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، ص 400.

(18) علي الفزاني، الأعمال الشعرية الكاملة(المجموعة الأولى)، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، الطبعة الرابعة، 1983م، ص47.

(19) حسن محمد صالح، ديوانه بعد الحرب، دار النشر الليبية، طرابلس ليبيا، 1960م، ص 11.

(20) هو علي محمد الرقيعي شاعر ليبي معاصر، ولد سنة 1934م بطرابلس، وتوفي بها سنة 1966م.

(21) علي الرقيعي، ديوانه أشواق صغيرة، الشركة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس ليبيا، الطبعة الثانية 1978م، ص63.

(22) علي الرقيعي، ديوانه الحنين الضامي، ص65.

(23) علي الرقيعي، الليل والسنون الملعونة (قصائد ومقالات مجهولة)، جمع وتقديم بشير العتري، المؤسسة العامة للصحافة، الطبعة الثانية 2009م، ص53.

(24) علي الفزاني، ديوانه رحلة الضياع، دار الأندلس، بنغازي ليبيا، 1966م، ص 36.

(25) المرجع نفسه، ص156.

(26) ساسي سعيد رمضان، قضايا التشكيل في الشعر الحر في ليبيا، ص25.

(27) علي الفزاني، الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى)، ص257.

(28) المرجع نفسه، ص171.

(29) سميرة سلامي، الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري، دار الينابيع، دمشق، الطبعة الأولى2000م، ص151.

(30) حسين مخلوف، جريدة الحقيقة، العدد 1328، 7 فبراير1970م.

(31) علي الفزاني، الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى)، ص201.

(32) المرجع نفسه، ص227.

(33) المرجع نفسه، ص43.

(34) علي الفزاني، الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى)، ص117.

(35) المر جع نفسه، ص160.

(36) أحمد عطية، في الأدب الليبي الحديث، دار الكتاب العربي، طرابلس ليبيا، ص44.

(37) علي الفزاني، الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى)، ص205.

(38) هو عبد اللطيف سليمان حسين، شاعر ليبي معاصر، ولد بتونس سنة1942م، و توفي سنة1960م.

(39) لطفي عبد اللطيف، ديوانه أكواخ الصفيح، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى 1967م، ص43.

(40) فضل طلال العبري، الأمن الثقافي في الخليج العربي، دار هلال للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 2012م، ص52.

(41) ساسي سعيد رمضان، قضايا التشكيل في الشعر الحر في ليبيا (رسالة دكتوراه غير منشورة)، ص 26.

(42) علي الفزاني، الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى)، ص157.

(43) ينظر: أحمد عطية، في الأدب الليبي الحديث، ص31.

(44) علي الفزاني، الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى)، ص 21.

(45) المرجع نفسه، ص 156.

(46) ساسي سعيد رمضان، قضايا التشكيل في الشعر لليبي (رسالة دكتوراه غير منشورة)، ص 36.

(47) علي الفزاني، الأعمال الشعرية الكاملة (المجموعة الأولى)، ص 204.

(48) علي الفزاني، ديوان مواسم الفقدان، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى 1977م، ص 12.